



من أهم أسباب الضعف السياسي الذي تعاني منه كبرى الفصائل في الثورة السورية أنها ما تزال تشارك في الثورة بعقلية الجماعة، أو ما أسميه "عقلية الدعوة"، وهي عقلية مناسبة لما قبل الثورة ولما بعدها، ولكنها في زمن الثورات أقرب إلى الضرر والإعاقة وتأخير الانتصار. أرجو أن ينتبه إخواننا في الجماعات الجهادية إلى ما بين الدعوات والثورات من فروق لعلهم يعملون على تداركها، وأهمها ثلاثة.

الأول أن الدعوات لا تترخص ولا تتنازل ولا تلين، فهي تدعو إلى الحق الكامل وتنتشبث به وتدافع عنه ولو كان الثمن الموت والاعتقال والتنكيل. هذه التضحية الثقيلة التي تطلب من الدعوات لا تطلب من الثورات، لأن الثورة تقود الأمة بكثيرها وصغرها وقوتها وضعفها وعاليها وعاميها، فلا يسعها ولا يحق لها أن تحمل الناس جميعاً على الشدة وتحملهم ما لا يطيقون. لذلك رأينا من النبي عليه الصلاة والسلام في الحديثة مرونة لم نر مثلها في حصار الشعب، رغم أن حالة المسلمين في تلك الأيام كانت أكثر حرجاً ومشقةً من حالتهم يوم الحديثة بما لا يُقاس. إنه الفرق بين قرار "الدعوة" التي انضم إليها أولئك المسلمين مختارين، وقرار "الدولة" التي صارت مظلة عامة لسكان البلد جميعاً، والثورة مثل الدولة بهذا المقياس.

الفرق الثاني بين الدعوة والثورة هو أن الثورة تهدم والدعوة تبني؛ الثورة تنقض بنيان الظلم والاستبداد والفساد فتقيم الدعوة محله بنيان الحق والعدل والصلاح. الثورة هدفها عام أما الدعوة فلها هدف خاص، فكل أعداء الاستبداد يشتركون في عدائه واستهدافه ويتعاونون على نقضه وإسقاطه، وبعد ذلك يختلفون في تصوّرهم للبديل الجديد، فيدعون كلّ منهم إلى مشروعه وتصوره بالكلمة والحكمة والمواعظة الحسنة، وكلما أحسن استثمار هذه الأدوات كان أقرب إلى التأثير والنجاح.

الثالث هو أن جماعات الدعوة اصطفائية انتقائية في عضويتها، فهي لا تضم إلا من وافقها على فكرتها واستعد لاحتمال

ضررية الثبات على المبدأ والصبر على تكاليفه العالية. أما فصائل الثورة فإن عملها هو الجهاد لتحرير البلاد من الاستعباد والاستبداد، ومن خصائص الجهاد أنه رابطة عامة تجمع المتدينين وغير المتدينين، بل إن شيخ الإسلام ابن تيمية اعتبر ذلك أصلاً عاماً، فقال في الفتوى: "من أصول أهل السنة والجماعة الغزو مع كل بَرّ وفاجر، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ويأقوام لا خلاق لهم كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم".

* * *

إننا بحاجة لاستحضار هذه المعاني في الثورة السورية اليوم، فقد أعاد الحرسُ على المناهج والأفكار والتحزبُ للفصائل والجماعات كلَّ جهود الوحدة والاختلاف حتى الآن، وتسبب في عجز بعض الجماعات عن استيعاب المتطوعين للجهاد لاختلاف المستوى وقلة التدين، فلم يخسر الجهادُ جنوداً فحسب، بل خسرت الدعوة فرصة تاريخية لنشرها بين الناس، لأن الحاضنة الجهادية تربَّى كما تربَّى الحواضنُ العلمية والدعوية.

المشكلتان السابقتان نشأتا بسبب العجز عن إدراك ما بين الدعوات والثورات من فروق، **والثالثة الأكبر والأخطر هي تحويل الثورة حملاً ثقيلاً لا طاقة لها بحمله، مما أعجزها عن الحركة والمناورة اللازمة للبقاء.**

إن كثيرين في الجماعات الجهادية يرهاقون الثورة عندما يطالبونها بما صنعه الإسلام في أول أمره، بينما تحدي العالم وحرب قُوى الكفر جميعاً لثبت أساسه ورفع بنائه. وهذا صحيح، لأنَّ دينَ فإنه لا يستطيع أن يصنع غير ذلك، فإما أن يظهر وينتصر ويبقى، وهو ما كان، أو يهُزَّ وينحسر ويموت كما حصل في دعوات أكثر الانبياء السابقين. أما الدول الإسلامية التي حملت هذا الدينَ من بعد فقد ناولت وحالفت وحاربت وصالحت، ومررت بقوَّةِ أعانتها على تحقيقِ الأفضل وبضعفِ أجيالها إلى التنازل والرضا بالمفوضول.

إن الدول جزء من واقع دولي معقد لا تملك إلا أن تخضع له جزئياً وتعيش معه ثم تحاول –إذا امتلكت القوة الكافية– أن تغير قواعده من داخله، أما التغيير من الخارج فلا يكون إلا بحروب هائلة بحجم الحربين الكونيتين الأولى والثانية، وليس هذا في طاقة أقوى الدول وكُبرائها فضلاً عن أضعفها وصُغرائها.

إن أي ثورة –مهما بلغت من القوة– تبقى أضعفَ من أضعف الدول وأقلها شأنًا، فلا قدرة لها على تحدي النظام الدولي الراسخ ولا مصادمته بالقوة الخشنة، بل هي مضطورة إلى استعمال "القوة الناعمة" لتحقيق مصالحها وبلغ غاياتها بالذكاء والدهاء والمرءة والحكمة والحكمة السياسية، ومن ذلك توسيع مساحة المصالح المشتركة مع القوى الحليفة والمحايدة، واستغلال التناقضات بين القوى المتنافسة، وتحييد من يمكن تحييده من الخصوم، والتعامل مع القوى الدولية بحكمة ومرنة تتيح تحقيق أكبر قدر من المصالح ودفع أكبر قدر من المضار.

* * *

إن القوى الإقليمية والدولية المعنية بملف الثورة السورية لا تهمها كثيراً (ولا قليلاً) معاناة أهل سوريا طالما حفظ النظامُ الذي يحكمها مصالحَ تلك القوى ولم يشكل لها أي إزعاج. وحيث إن نظام الأسد حقق هذه الشروط فقد عاش آمناً في كنف تلك القوى منذ أربعة وأربعين عاماً، ولم يضطر النظام الدولي للتدخل إلا مرة واحدة خرج فيها نظام الأسد الابن عن النص (لقلة خبرته في أول عهده) فأدبوه بالمحكمة الدولية حتى عاد ذليلاً مستسلماً إلى بيت الطاعة.

لقد برهن نظام الأسد على الدوام أنه قادر على تحقيق مصالح القوى الدولية وأنه لا يشكل أي تهديد حقيقي لها، وحينما نسعى لإسقاط هذا النظام ووراثته فإننا نواجه خيارين علينا أن نختار أحدهما: إما أن نحارب النظام الدولي الذي تואفت عليه القوى الكبرى في العالم واستقرَّ بصورته الحالية مع نهاية الحرب العالمية الثانية، فإذا حاربناه وغلبناه استطعنا أن نفرض

عليه الواقع الجديد الذي نريد، أو نعترف بأننا نعيش في زمن الاستضعاف الذي يَحلّ لنا فيه ما لا يحل في زمن القوة. اسمحوا لي هنا أن أعيد التذكير بفتوى أبي حفص الموريتاني مفتى القاعدة السابق: "إذا كان الإسلام يجيز للفرد أن يأكل ميته اللحم ليحافظ على حياته عند الاضطرار فإنه يجيز للجماعة أن تأكل الميته السياسية عند الاضطرار لحفظ على نفسها". إذا كان الخيار الثاني هو الأكثر واقعية فإنه يعني أن على الثورة التي تريد إسقاط النظام أن تُقنع دول إقليم بأنها بديل مناسب، وأن تقنع المجتمع الدولي بأنها خيار آمن قادر على توفير الحد الأدنى من مصالحه في سوريا. ما هذا الحد الأدنى؟ إنه الفَرْ الذي ليست فيه خيانة للأمة ولا تضييع للدين ولا تجاوز لخط الثورة الأحمر، ولكي نحقق تلك المهمة الصعبة فإننا بحاجة إلى كثير من المرونة وكثير من "البراغماتية" المنضبطة بالضوابط الشرعية (في أوسع اختياراتها وليس في أضيقها). أُعترفُ مقدماً بأن تحقيق هذه المعادلة المعقدة أمر عسير، ولكنني لا أراه مستحيلاً، وقد لا يقدر عليه كثيرون (وأنا منهم)، ولكن لا بد أن يوجد في أحرار سوريا ومجاهديها من يجمع بين التقوى والأمانة والنباهة والعلم الشرعي والواقعية السياسية والحرص على البلاد والعباد، فعسى أن يوكل إليهم تنفيذ هذه المهمة العسيرة. إنها المهمة الصعبة التي ستتكلل بالنجاح – إن شاء الله. ثورة قدّمت تضحيات لن ينساها التاريخ.

السورية نت

المصادر: